الصحيح من الفراسة

امارات السرور

لا نجد انساناً ولا حيواناً الاَّ وفيهِ عاطفة السرور يعرب عنها على اساليب شتَّى ظاهرة الدلالة لا تخفى على احد اظهرها الضحك وهو الاسلوب الوحيد الذي افاض في وصفهِ القدماء من اصحاب الفراسة كأن ليس للسرور علامة سواهُ . ذكر بعضهم ان ديموقريطوس كان يغرب في الضحك حتى اتسع شدقهُ وبلغ اذنيهِ وبقيت آثار الضحك في وجههِ. وقالوا ان زدشت صاحب ديانة الفرس ولد ضاحكاً وان مَن يغرب في الضحك حتى يقلكهُ السعال فهو ظالم غشوم ومن كانت لهُ شفتان دقيقتان ووجه بشوش يضحك ابتساماً فهو محب للملذات . ومَن كثر ضحكهُ قلَّت الثقة بهِ ومَن كان ضحكهُ قليلاً فهو كريم الطباع وافر الحكمة . الى غير ذلك من الاقوال السخيفة التي ان اصابت مرةً اخطأت مئة مرة

واول من بحث عن الضحك بحثاً علمياً فسيولوجياً هو الشهير هربرت سبنسر وقد لخصنا الكلام التالي عما كتبهُ في هذا الموضوع قال :

اذا سألت الناس لماذا يضحكون حينما يرون ولداً يمشي لابساً ثياب ابيهِ اجاوبك لاننا نرى تضاداً بين الولد الصغير واللباس الكبير . وهذا الجواب لا يبين سبب الضحك لان الانسان يضحك ايضاً اذا فرح وسرَّ من غير ان يرى شيئاً من التضاد ولا يبين ايضاً سبب ما يحدث من الحركات في وجه الانسان حينما يضحك. وقس على ذلك سائر الامور التي يظنها الناس سبباً للضحك فانها ليست السبب الفسيولوجي . والسبب الفسيولوجي هو ما اريد بيانهُ

من الافعال ما ليس خاضعاً للارادة كالسعال والعطاس لكنهُ يحدث من سبب مهيج كما اذا علق شيء بالحلق او دخل السعوط الانف. ومنها ما هو خاضع للارادة لكن السبب المهيج بقوتهِ كرجفان اليد فانهُ يشتد بالبرد حتى يخرج عن فعل الارادة. ومعلوم ان المؤثر يؤثر في طرف عصب من اعصاب الحس فينقل العصب التأثير الى مركز الجهاز العصبي ثم يُرد على عصب من اعصاب الحركة ويحرك العضو الذي اتصل بهِ المؤثر اي ينتقل التأثير من الاعصاب الى العضلات. ثم ان الفعل العصبي يؤثر في الاوعية الدموية فاذا سمع انسان خبراً مفرحاً او محزناً زادت ضربات قلبهِ. واذا سمع المريض حديثاً سارّاً فقد يحسن هضمهُ للطعام. واذا لم يكن التهيج العصبي شديداً انتقل من عصب الى آخر بسهولة كما يحدث في انتقال الافكار من موضوع الى موضوع آخر

ويرى مما تقدَّم ان التهيج العصبي يسير في ثلاث مسالك اما من عصب الى آخر او من الاعصاب الى العضلات او من الاعصاب الى الاوعية الدموية والغالب انهُ يسير في اثنين منها معاً وقد يسير في واحد او في الثلاثة في وقت واحد ولكن ليس على السواء . فاذا اشتدَّ الخوف على انسان حتى حملهُ على الركض بقي شيءٌ من التهيج العصبي في اعصابهِ وتولدت منهُ الهواجس. واذا مدحتَ انساناً مدحاً ترتاح اليهِ نفسهُ صرف بعض التهيج العصبي في توليد المسرَّة فيهِ والبعض الآخر في توارد الدم الى معدتهِ فتقوى على هضم الطعام

يظهر من ذلك ان التهيج العصبي لا بدَّ وان يسير في طريق ما فاذا كان بعض المسالك مقفلاً في وجههِ سار في البعض الآخر واذا كثُر ما سار منهُ في احد المسالك قلَّ ما سار في غيرهِ . وهذا مما نشاهدهُ كل يوم فاشد الحزن ما لا يصحبهُ شيءٌ من الحركات لان التهيج العصبي ينحصر في الاعصاب فيزيد شعورها واما اذا وجد لهُ منفرجاً باللطم والبكاء قلَّ تأثيرهُ الداخلي . والرجل الذي يخفي غيظهُ يكون محباً للانتقام واما الذي يظهرهُ بالخصام فلا يكظم الغيظ انتقاماً

ولهذا فالحركات العضلية تخفف فعل التأثيرات العصبية . فالغضب يخف كثيراً اذا مشى الانسان مسرعاً. ومن بُلي بخسارة فادحة هانت عليهِ اذا عاد الى العمل بنشاط . والضد بالضد اي ان التأثيرات العصبية تقلل الحركات العضلية فاذا كان الانسان يمشي وخطر لهُ خاطر شغل بالهُ وقف بغتةً يفكِّر فيهِ واذا كان جالساً يحرك رجليهِ ثم خطر لهُ خاطر مؤثر اوقفهما عن الحركة. والافكار تؤثر في الاوعية الدموية وتضعف حركة الدم فيها فاذا اشتدَّ الفرح او الهم على انسان افقداهُ شهية الطعام واذا كان قد اكل اوقفا فعل الهضم . ومثل ذلك الاشغال العقلية

وخلاصة ما تقدم ان التهيج العصبي الذي نشعر بهِ بمشاعرنا الباطنة لا بدَّ وان يتخذ احدى الطرق الثلاث التي ذكرناها قبلاً او اثنتين منها او كلها معاً في وقت واحد وانهُ اذا سُدَّ احداها زاد ما يجري في الاثنتين الاخريين واذا زادت الكمية الواردة منهُ الى احدى هذه الطرق قل ورودها الى غيرها . فانظر كيف يمكن تعليل الضحك على هذا الاسلوب

من البديهي ان الضحك حركة عضلية تنتج عن زيادة الشعور حتى يضطر الى تبديد ما يزيد بحركة عضلية . ومن المؤكد ايضاً ان الضحك ليس دائماً دليل الفرح بل قد ينجم عن التعب العقلي والدغدغة وبعض انواع الالم . واذا ثبت ذلك نرى امامنا حقيقة اخرى وهي انهُ ليس للضحك غرض او غاية في اغلب الاحيان تكون الحركات موافقة للتأثيرات التي ولَّدتها مثال ذلك ان الخوف يولد فينا قوة الركض للنجاة اما الضحك فلا نفع منهُ على الاطلاق والغالب

ان ما تشعر بهِ النفس ينتقل من الفكر الى الحركة بواسطة اعضاء النطق كما يظهر الغضب او الرضى بحركات الفكين واللسان والشفتين ولذلك كانت بعض العضلات المحيطة بالفم اول ما يتأثر بالاحساسات المطربة ويتلوها الجهاز التنفسي . وكلنا يعرف كيف يزيد التنفس وخفقان القلب بسبب الاخبار المؤثرة مفرحة كانت او محزنة . ثم اذا زاد التهيج العصبي عما تحتملهُ اعضاء الكلام والجهاز التنفسي سار الى الاطراف العليا فيصفق الاولاد بايديهم و يفرك الرجل يديهِ وقد يهز جسمهُ من الامام الى الوراء . واذا زاد التهيج العصبي بعد هذا استلقى على ظهرهِ ومحص برجليهِ . فهم ان ما تقدَّم قد لا يكفي لتعليل جميع حركات الضحك لكنهُ كافٍ لتعليلها اجمالاً وهو يعلل الضحك الناتج عن السرور او الالم ولكنهُ لا ينطبق على ضحك المرء عند مشاهدتهِ التضاد بين الاشياء . وقد قالوا في هذا ان الانسان يضحك لانفراج نفسهِ بغتة من الهم العقلي ولكن لماذا نضحك اذا سمعنا انساناً يعطس بين فقرات الموسيقى المطربة حيث لاهمَّ يتعب العقل . وللوصول الى التعليل الحقيقي لهذا الحادث علينا ان نحسب اولاً كمية الشعور في احوال كهذه ثم نرى وجهة انصرافها . مثال ذلك لو فرضنا اننا نشاهد تمثيل رواية في مشهد وقد تتبعناها باهتمام حتى وصلنا الى ما تتوق النفوس اليهِ كاجتماع العاشق ومعشوقهِ بعد طول الفراق وزوال اسباب الجفاء فاللذة التي تشعر بها النفس حينئذٍ لا تريد تركها لانها نتيجة الفرج بعد مشاهدة عذاب الحبيبين . ثم لو فرضنا اننا ونحن ننظر اليهما وقلوبنا تطفح سروراً دخل المشهد جدي اليف ونفخ في وجهيهما فان الحضور يضجون بالضحك وهذا الضحك لا يفسرهُ قولنا انهُ نتج عن انفراج هموم النفس لان النفس تكون مسرورة بما تشاهدهُ . والواقع هو ان قسماً كبيراً من الجهاز العصبي كان تحت تأثير شديد وكانت نفوس الحاضرين تنتظر ما سيكون من نهاية الرواية فلو لم يعترضها شيء لسار التأثير العصبي سيرهُ في توليد افكار جديدة لكن دخول الجدي اوقفهُ بغتة فسدَّ مجراهُ ولم يفتح لهُ مجرًى كافياً لسيرهِ كله لانهُ امر طفيف فسارت تلك الزيادة الى العضلات التي حول الفم ونتج منها ما ندعوهُ ضحكاً

ويؤيد هذا التعليل ما نراهُ احياناً من ان بعض الذين يشاهدون الحوادث المضحكة لا يضحكون لها بل يستاؤن منها كما لو وقع رجل ضخم وهو ماشٍ لثقل جسمهِ فان كثيرين من الذين يرونهُ يهزأون بهِ و يضحكون ولكن بعضهم لا يضحك لشعورهِ بمصاب الرجل وهذا الشعور استغرق كل ما فيهِ من التأثير العصبي فلم يبقَ منهُ شيء يسير الى عضلات الفم التي تضحك

قال واحد انهُ ذهب ليلة الى مشهد الخيل فكان اللاعبون يقفزون من فوقها ثم اتى المهرج ليقفز مثلهم فجمع قوتهُ وركض مسرعاً حتى وصل الى محل القفز ثم وقف وجعل يمسح

الغبار عن جسم الفرس زاعماً انهُ بذلك يجعلهُ اوطأ مما هو . فاغرب الحاضرون في الضحك كلهم الاَّ الرجل المشار اليهِ فان التهيج العصبي لم يسر فيهِ الى عضلات الضحك بل ولَّد فيهِ شعوراً جديداً وهو الغضب لاستهزاء اللاعب بالحضور

ومن قابل بين الاسباب التي تولد الضحك والتي لا تولدهُ يجد ان الشعور الذي ينتج عن الثانية يختلف بنوعهِ عن الشعور الذي ينتج عن الاولى ولكن كميتهُ وقوتهُ واحدة . ومن الاسباب التي لا تولِّد الضحك رؤية شخص مفلوج يتوهَّ تحت حمل ثقيل وقساوة الوالدين على اولادهم وعقوق البنين لآبائهم وما اشبه . فكل هذه تجعل فينا الغضب والألم لا السرور والانشراح لان الشعور الاول ليس باقل تأثيراً من الثاني

ومن اسباب الضحك ايضاً ان ينتقل الوجدان بدون انتباه من الامور الكبيرة الى الامور الصغيرة اي ان يكون التضادُّ على سلَّم نازل فاذا كان على سلَّم صاعد كان تأثيرهُ ضدَّ ذلك ونتج عنهُ التعجب والانذهال كما لو حدث حادث كبير عقب حادث صغير فعوضاً عن نقلُّص العضلات تراها تتمدد فيترك الانسان ما يكون بيدهِ ويفتح فاهُ

وما تقدم يساعد على تفسير كثير من الحركات غير الضحك . فكلنا يعلم ان التأثيرات اذا اشتدت تبطل عمل الذاكرة وتعوق قوة النطق مثال ذلك ما يعانيهِ بعض الناس من الاضطراب عند التكلم امام الجمهور وما يبدو على التلامذة من الوجل وقت الامتحان مع انهم يكونون قد استظهروا دروسهم جيداً . فان الخطيب اذا القى خطبتهُ منفرداً سار التهيج العصبي الخفيف في مجرى ضيق لكنهُ كافٍ ولم يكن عليهِ سوى تذكار ما يكون قد اعدَّهُ من الافكار وذلك لا يستلزم قوة عقلية زائدة . ثم اذا داخلهُ الاضطراب امام الجمهور اقتضى هذا الشعور الجديد منفذاً ولما كانت الاعمال العقلية التي يعملها في ذلك الوقت محدودة لا تستغرق كل هذا الشعور سار في مجارٍ اخرى وولَّد افكاراً تختلف عما يكون الخطيب في صددهِ فينسى ما يكون قد اعدهُ للخطابة

ومن هذا القبيل ما يشاهدهُ بعض الخطباء من الاتيان ببعض الحركات فمن اعضاء البارلمنت من ينزع نظارتهُ و يلبسها مراراً وهو يتكلم وكثيرٌ من التلامذة لا يستطيعون الكلام امام الاساتذة ما لم يمسكوا قلماً او ورقة و بعضهم يلعب بزر ثوبهِ فاذا قطعت الزر او نزعت القلم من يدهِ وقفت سلسلة افكارهِ لان التهيج العصبي يعود فيزيد عمَّا يلزم للافكار . ولا سبيل لاعادة الافكار كما كانت الاَّ بصرف التهيج العصبي الى العضلات فيخف الضغط على الافكار . انتهى

والضحك غير خاصّ بالانسان فقد ابان داروين ان الشمبانزي يضحك اذا دُغدغ فتبرق عيناهُ ويبسم فمهُ ويتجعّد جفناهُ قليلاً ويصوت صوتاً يشبه صوت الانسان اذا ضحك . وتفعل الدغدغة مثل ذلك بالارنب ارتانغ وغيرهِ من انواع القرود العليا والسفلى . والظاهر ان العرب انتبهوا لضحك القرود كما ترى في قول بعضهم

واذا اشار محدثاً فكأنهُ قرد يقهقه او عجوز تلطمُ

وامارات الضحك ظاهرة في الوجه لا تخفى على احد حتى الطفل الصغير يراها ويميزها ويقلدها ويبتدئ في التبسّم وينتهي في الاغراب اي المبالغة في الضحك وحينئذٍ تفيض الدموع فتبرق بها العيون او تزيد فتهطل كما تهطل وقت البكاء وفي ذلك يقول الصفي الحلي

طفح السرور عليَّ حتى انهُ من فرط ما قد سرَّني ابكاني

وتشترك اعضاء الفم والوجه كلها في اظهار السرور فيقهقه الضاحك قهقهة يرددها كثيراً وحينما تعجز هذه الاعضاء عن اظهار القوة العصبية كلها تساعدها عضلات التنفّس والحجاب الحاجز وقد تعجز هذه عن ابداء كل القوة العصبية التي تهيج حينئذٍ فتدعو الى حركة اليدين والرجلين فيصفق الضاحك بيديهِ ويفحص برجليهِ ويشعر كأن خاصرتيهِ تكادان تنبثقان فيمسكهما بيديهِ ويحمر وجههُ وعنقهُ وينتفخ وداجاهُ ويستند الى شيء مخافة الوقوع

وقد تشتدُّ هذه الحركات حتى تتغلّب على الارادة ويصير الضحك نوبًا مزعجة جدًّا ولاسيما في النساء والاولاد. والنساء اكثر ضحكاً من الرجال والصغار اكثر ضحكاً من البالغين لان النساء والصغار اكثر انفعالاً من الرجال والبالغين واقل ضبطاً لحاساتهم . ويضحك الانسان في الصحة والقوة اكثر مما يضحك في المرض والضعف . ويكثر الضحك ايضاً في حالة البله وفي بعض الامراض العصبية

وعلاقة الضحك بحالة الانسان الادبية اشد من علاقتهِ بحالتهِ العقلية فالمتكبر المعجب بنفسهِ الذي لا يعرف كيف يتصرّف يضحك قليلاً لكي لا يفرّط في عزّة نفسهِ. وكذلك الحسود والشرير يضحكان نادراً لانهما لا يريان ما يسرهما

والضحوك الذي يضحك لاقل سبب ويضحك كثيراً كريم الاخلاق خالٍ من العُجب بنفسهِ. وقد يدرّب الانسان نفسهُ تدريباً على الامتناع عن الضحك اما لكي لا يقال انهُ خفيف الروح او لكي لا يظهر تجعّد وجههِ وخلل اسنانهِ . وهذا في النساء اكثر منهُ في الرجال. وقد يدرب نفسهُ على الضحك لتظهر اسنانهُ اذا كانت جميلة

ويضحك الانسان احياناً ضحك التهكم ويسمى الضحك الصفراوي لكن التمييز بين هذا

الضحك وضحك السرور واضح جداً لا يخفى على احد

والفرح والحزن شعوران تبدو علاماتهما على نسق واحد في كل شيء . الفرح يدعو الى البهجة والبسط والاظهار . والحزن يدعو الى الكدر والضيق والاخفاء . افرح فتفتح كوى بيتك وتطلب النور والهواء والحركة . احزن فتقفل كوى بيتك وتطلب الظلمة والسكون والانزواء . انظر الى جماعة اجتمعت في السوق ووقفت ساكتة ساكنة كأن على رؤوسها الطير لا حركة لها ولا اشارة فتعلم حالاً انها رأت شيئاً محزناً ولدّاً داسهُ الترامواي او رجلاً وقع ميتاً . وانظر الى جماعة اخرى وقفت ترقص وتطرب وتزعق فتعلم انها في فرح في عرس او عيد او ما اشبه

و يظهر الابتسام في الطفل اولاً وعمرهُ اربعون يوماً او خمسون ثم يضحك وعمرهُ ثلاثة اشهر ثم تزيد علامات الفرح فيهِ ظهوراً بين الخامسة والعاشرة فيصير يثب على قدميهِ و يصفق بيديهِ كأنهُ يكاد يطير فرحاً . وهذا الرقص وهذا التصفيق اول مبادىء الموسيقى فهي بنت السرور وهو ابنها والتدرُّج بسيط من التصفيق باليدين الى النقر على الدف والطبل والصنوج الى سائر آلات الطرب . وقد يظهر السرور الحيواني على اساليب اخرى يشترك فيها الانسان والحيوان الاعجم مما لا محل لبسطهِ

وجملة القول ان السرور الدائم الناتج عن جودة الصحَّة وراحة البال وقلة الهموم يظهر في بشاشة الوجه وطلاقتهِ و بريق العينين فيقال ان وجه فلان يضحك وان النظر فيهِ يشرح الصدر

والسرور الذي يأتي بغتةً والنفس غير مستعدة لهُ لا تكفي البشاشة العادية لاظهارهِ فيظهر بالتبسم والضحك والقهقهة والتصفيق والرقص والغناء والطرب

والسرور الناتج عن النجاح وشبع المطامع يظهر بالعُجْب والخيلاء فينفخ الانسان صدرهُ كما ينفش القط شعرهُ ليظهر اكبر مما هو ويخاف الكلب منهُ . ويرفع رأسهُ ويتكلم كلاماً فخماً مقعراً لكي يراهُ و يسمعهُ كل احد

والسرور الناتج عن اللذة وخفَّة الروح كثير في محبي بطونهم فترى افواههم مفتوحة غالباً كانهم ينتظرون لقمةً طيبة او قبلة سارَّة

وبعض هذه الامارات يبدو ويزول حالاً وبعضها يبقى اثرهُ في الوجه. فالبشاشة والعجب آثارها ثابتة في الوجه والسرور البغتي والسرور الناتج عن اللذة تبدو اماراتهما وتزول بزوالها . وقد يبقى بعضها اذا تكرَّر مراراً كثيرة فترى محبي الملاذ جاحظي العينين منتوحي الفم او منكسري الطرف كمن يشمُّ زهرةً طيبة و يسرُّ برائحتها